﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ﴿٩٥﴾ ﴾

[يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجّه إلى الخير قد يأتى بمقابله من الشر ؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة.

ونحن فى حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه : اجتهد فى دروسك ، واستمع إلى مدرِّسيك جيّداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذى رسب ، والوالد فى هذه الحالة يأتى بالإغراء الخيِّر ، ويصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر.

وقد قال الشاعر :

فالوَجْهُ مثلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ والشَّعْرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ
ضدَّان لمّا استجمعا حَسُنَا والضِّدُّ يُظهِر حُسْنَهُ الضِّدُّ[1]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهى الأصل فى المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتُلْفت هذه الآيات إلى بديع صُنْعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرته.

وكذلك يُقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول فى البلاغ عن الله تعالى.

---

(١) الأضداد : فى ظهورها تظهر ميزات ما فيها ، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلا إذا تذوّقنا مرارة الباطل ، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل فى إظلامه ، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوينا بنار المظالم.

وآيات القرآن الكريم التى تحمل منهج الله .

وهم كانوا يُكذِّبون بكل الآيات.

والخطاب فى هذه الآية هو خطاب للنبى ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما فى الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذَّبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيّا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ فى التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم فى أمّته تعليماً وتوجيهاً؛ لأن المنهج مُنزّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم (١).

وإذا كانت الآية التى سبقت توضح: إن كنت فى شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسْمعه لكل الأمة ؛ الجواب القائل: أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسبى ما أنزل الله سبحانه علىَّ.

ألم يَرِدْ فى القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكته :

﴿ .. أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سبأ]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ .. لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

---

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ..(٤١) ﴾ [سبأ]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسْمع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدهم أحد من الخَلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .

إذن : فالسؤال جاء ؛ ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى الجواب :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ..(١١٦) ﴾ [المائدة]

إذن : فالمراد أن يقول الرسول ﷺ : أنا لا أشك ولا أسأل .

والشك [١] - كما نعلم - معناه : تساوى كفة النفى وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراء وكذباً .

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يضعون كل سمكة بعد اصطيادها فى خيط يسمى «المشكاك» .

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضْم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط [٢] .

من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضَمُّ شىء إلى شىء ، ومنه الشكائك [٣] ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

---

(١) الشك : حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفى ، ويتوقف عن الحكم . [المعجم الوسيط] .
(٢) شك الشىء واشتكه : ضم أجزاءه . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .
(٣) الشكائك : جمع شكيكة ، وهى مجموعة أشياء شُكَّ - أى ضُمَّ - بعضها إلى بعض . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

ومنه «شاك السلاح [1]» أى: الذى ضَمَّ نفسه إلى الدرع.

فالشك هو ضم شىء إلى شىء، وفى النسب تضم النفى والإثبات معاً؛ لأنك غير قادر على أن ترجِّح أحدهما.

وكل خطاب فى الشك يأتى على هذا اللون.

والآية التى نحن بصددها تقول:

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذِّبين لآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعنى: إخراج الصدق إلى الكذب، وإخراج الواقع إلى غير الواقع.

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ.

والذى يؤيد هذا وجود آية فى آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ [2] اللَّهِ .. (١٠٤) ﴾ [يونس]

(١) الشِّكة: ما يحمل أو يلبس من السلاح. [المعجم الوسيط: مادة (ش ك ك)].

(٢) دون: نقيض فوق، وتكون ظرفاً، وتأتى بمعنى أمام، وبمعنى وراء، وبمعنى غير، وبمعنى قرب أو جهة، وبمعنى قبل، وبمعنى أقل. والتمييز بين هذه المعانى يكون بالقرائن. وهى فى الآية ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾ [يونس] بمعنى (غير). [القاموس القويم] بتصرف.

فكأن الخطاب المقصود منه الأمة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ[1] عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم عِلْماً أزليّاً بأنهم لن يُوجِّهوا اختيارهم للإيمان .

فحكمه هنا لا ينفى عنهم مسئولية الاختيار ، ولكنه علم الله الأزلى بما سوف يفعلون ، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من سلوكهم .

وحُكْمه سبحانه مبنيٌّ على الاختيار ، وهو حكم تقديرى .

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – حين يأتى وزير الزراعة ، ويعلن أننا قدَّرنا محصول القطن هذا العام ، بحساب مساحة الأراضى المنزرعة قطناً ، وبالمتوسط المتوقع لكل فدان ، وقد يصيب الحكم ، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن ، فمن المحتمل أن يُصاب القطن بآفة من الآفات ، مثل : دودة اللوزة ، أو دودة الورقة .

إذن : ففى المجال البشرى قد يصيب التقدير وقد يخطىء ؛ لأن الإنسان يُقدِّر بغير علم مُطْلق ، بل بعلم نسبى .

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلى ، وحين يُقدِّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدَّره .

(١) حقت : وجبت عليهم كلمة ربك بالعذاب [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

ولذلك يجب أن نفرق بين قضاء حكم لازم قهرى ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّر من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره ، وهذه هى عظمة علم الغيب.

ومثال ذلك: هو سلوك أبى لهب [1] ، فقد نزل فيه قرآن يُتلَى:

﴿ تَبَّتْ [2] يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾
[المسد]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة ؛ لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن خواطر أبى لهب لن تدفعه إلى الإيمان ، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عنِّى إننى سأصْلَى [3] النار ، لكن ها أنذا أعلن أننى أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله .

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب ، فقد علم الله أزلاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام ، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص. وكان إسلام هؤلاء رغم وقوفهم ضد النبى ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدِّر البشر التقدير ، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة ، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التى ذُكر فيها ، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه. فاجتمعت إليه قريشٌ فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أكنتم تصدقونى؟ قالوا: نعم. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك ، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

(٢) تبت: هلكت أو خسرت أو خابت. [كلمات القرآن: للشيخ حسنين محمد مخلوف].

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾[المسد] أى: سيُشوى بنار جهنم.

المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونياً أزلياً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتى الأمر على غير ما يُقدِّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يقدر.

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدَّر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه نابع من علمه الأزلى ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار. والله سبحانه هو القائل:

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا [1] إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [2] (٩٧) ﴾

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم فى الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قبل - ما أورده الحق سبحانه فى كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا [3] (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

---

(١) الرجس : القذر والنتن حسياً ومعنوياً ويطلق على ما يُستقبح فى الشرع . والرجس والرجز معناهما واحد ويطلق الرجس على العذاب لأنه سبب عنه . قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ .. (٧١) ﴾ [الأعراف] أى : عذاب بسبب الرجس الذى اقترفوه [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم : فلا ينفعهم حينئذ . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

(٣) الينبوع : العين التى لا ينضب ماؤها .

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [١] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً [٢] (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ [٣] أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً [٤] (٩٣) ﴾ [الإسراء]

وكأن الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحاً: لستُ أنا الذى يُنزل الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتى القرآن بالسبب الذى لم تنزل به تلك الآيات التى طلبوها ، فيقول سبحانه:

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩) ﴾ [الإسراء]

إذن: فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق فى المعاندة والمعارضة ، ويقابل قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه.

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون مُعتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمح به قلبه فليُدخله فيه ؛ وبهذا الاختيار القلبى غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه فى الآيات السابقة كلاماً فى الوحدانية ، وكلاماً فى الآيات المعجزات ، وكلاماً فى صدق النبوة ، وكلاماً عن القيامة ،

---

(١) كسفاً: قطعاً. والكسف: السحاب المقطع قطعاً ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٨) ﴾ [الروم].

(٢) قبيلاً: متقابلين. والمراد رؤيتهم عياناً.

(٣) الزخرف هنا: هو الذهب. والزخرف: الزينة ، وقد يقصد به التمويه والتزوير وتزيين الكذب ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ..(١١٢) ﴾ [الأنعام].

(٤) ينبوعاً: عيناً تنبع لنا بالماء ببلدنا هذا. جنة: بستان. فتفجر الأنهار: بأرضنا هذه التى نحن بها. خلالها: يعنى: خلال النخيل والكروم. وخلالها: بينها فى أصولها. تفجيراً: سيلاً يسيل بينها. كسفاً: قطعاً. قبيلاً: مقابلة أو جميعاً ، فنعاينهم معاينة. زخرف: ذهب. ترقى: تصعد فى درج إلى السماء. [مختصر تفسير الطبرى: ص ٣٢٤ ، ٣٢٥] بتصرف.

وقصّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصَّل قليلاً فى قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام.

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام فى إطناب [1] ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يَقُلْ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسالات: رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس ، وهو الرسول الذى سُمِّيت السورة باسمه.

ولسائل أن يقول: ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة فى هذه السورة ؟

وأقول: لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمَّس الحكمة فى ذلك ، ولماذا لم تأت فى السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التى انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التى انتهى إليها أمر الرسول ومَنْ آمن به.

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بنوع واحد فى الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى فى البحر .

---

(١) الإطناب والمساواة والإيجاز من فنون البلاغة فالإطناب : شرح بإفاضة . والمساواة : مساواة اللفظ للمعنى . والإيجاز : اللفظ القليل للمعنى الكبير ولكل مقام مقاله . [شرح دلائل الإعجاز] بتصرف.

إذن: فمَنْ ذُكر هنا من الرسل كان له علاقة بالماء، أما بقية الموكب الرسالى فلم تكن لهم علاقة بالماء.

ونحن نعرف أن الماء به الحياة، وبه الإهلاك؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشيء، ويُهلك بالشيء نفسه. وكأن الحق سبحانه يبيِّن لنا الحكمة: أنا أهلكتُ بالغرق هناك، ونجَّيْتُ من الغرق هنا.

إذن: فطلاقة القدرة الإلهية هي المستولية على هذه السورة، كما تظهر طلاقة القدرة في مجالات أخرى، وبألوان أخرى[1].

وسُمِّيت هذه السورة باسم يونس؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف[2]، وهم الأمة الوحيدة في هذا المجال التي استثناها الحق سبحانه من الإهلاك، فقد أغرق قوم نوح، وأغرق قوم فرعون؛ فكلاهما قد كذَّب الرسل، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس[3] آمنوا فأنجاهم الله سبحانه.

وسُمِّيت السورة باسم من نجا؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب، فنجَّوا أنفسهم بالإيمان.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) من طلاقة القدرة توظيف الشيء في ضده مثل النار، فوظيفتها الإحراق ولكنها كانت على سيدنا إبراهيم برداً وسلاماً. والماء به الحياة وفيه الغرق، وبه النجاة؛ فقد نجى الله سبحانه موسى عليه السلام وأغرق به فرعون.

(٢) يقول سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧)﴾ [الصافات] وهم من قرية «نينوى» جهة الموصل بالعراق الحالية.

(٣) البأس: العذاب. يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا..(١٤٨)﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)﴾ [الأعراف]. والبأس: شدة الحرب، يقول تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ..(١٧٧)﴾ [البقرة]. والبأس: القوة. يقول تعالى عن قوم بلقيس ملكة سبأ حين شاورتهم في أمر سليمان: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ..(٣٣)﴾ [النمل].

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ[1] ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ[2] ﴿٩٨﴾﴾

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتى بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فَقَبِل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده .

فمَنْ وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يُقبَلُ منه ، ومن أحس واستشفّ بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله .

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل : «لولا زيد عندك لأتيتك» تفيد أن امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها : «أداة تحضيض وحَثّ» مثل قول الحق سبحانه :

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة]

---

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر بكون ضمير رفع منفصل [القاموس القويم] .

(٢) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ..﴿٩٨﴾﴾ : يقول عز وجل : لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذا نزل بهم بأس الله ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ..﴿٩٨﴾﴾ قيل : إنهم لما أظلهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ، قذف الله فى قلوبهم التوبة ، وفرَّقوا بين كل أنثى وولدها ، وعَجُّوا - أى : رفعوا صوتهم بالتلبية - إلى الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب . ﴿ ..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ : لم نعاجلهم بالعقوبة ، واستمتعوا بآجالهم فى الدنيا ، إلى حين مماتهم ووقت فناء أعمارهم . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٢٤١ ، ٢٤٢].

أى: أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ..(٩٨) ﴾ [يونس]

أى: أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب.

إذن: فقوم يونس هنا مُسْتثنون؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب.

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة، يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ[(١)] (١٤٤) ﴾ [الصافات]

أى: أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح.

وهنا يبيِّن الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

---

(١) المسبحون: هم المصلّون لله تعالى، قبل البلاء والعقوبة التي نزلت به. وقيل: المسبحون: هم الذاكرون، بقوله كثيراً فى بطن الحوت: ﴿ .. لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء].
﴿ .. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]: لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين].

أى: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿.. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعنى: مكاناً مُهيّأً، أهله متوطنون فيه، فإذا ما مَرَّ عليهم زائر فى أى وقت وجد عندهم قِرىً[1] أى: وجبة طعام.

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد»، وهؤلاء من يملكون طعاماً دائماً، أما من يكونون قلة قليلة فى موطن ففى الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفيهم ويكفى الزائر لمرة واحدة.

وتسمى مكة المكرمة «أم القرى»[2]؛ لأن كل القرى تزورها.

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبى ﷺ فى قصة الذهاب للطائف، وهى قرية العبد الصالح يونس بن مَتَّى[3]، وهى فى

(١) القرى: هو طعام الضَّيفان. والقرية فى اللغة: المصر أو البلد الكبير مثل: مصر، مكة، الطائف، نينوى، وغيرها مما أشار إليه القرآن، فقد وردت كلمة «القرية» فيه بهذا المعنى (٣٧ مرة) غير المثنى منها (١) والجمع (١٩) مرة.

(٢) قال عنها الحق سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ..(٩٢)﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ..(٧)﴾ [الشورى].

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعتبة وشيبة ابنى ربيعة يقال له عداس، فعندما هَمَّ رسول الله ﷺ بالأكل من عنب بستانهما قال: باسم الله. ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له ﷺ: ومن أهل أىّ البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبى، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه. أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤٢١).

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه:

﴿وَذَا النُّونِ [1] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا . . (٨٧)﴾ [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذى يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره.

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً.

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة».

والحق سبحانه يقول:

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء]

وسُمِّى سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحوت الذى ابتلعه.

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجىء إنما يجىء ليقوِّم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ، أى: أنهم أغضبوه.

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل فى الفعل.

---

(١) النون: الحوت. و(ذو ، ذا ، ذى) بمعنى: صاحب. أى: صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام.

وأبو الطيب المتنبى [1] يقول فى هذا المعنى:

إذَا ترحَّلت عن قومٍ وقد قَدروا ... ألاَّ تُغادرِهم فَالرَّاحلِون هُمُ

أى: إن كنت تعيش مع قوم، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم، فالذى رحل حقيقة هم هؤلاء القوم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً:

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

أى: أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يُضيِّق عليه الأرض الواسعة، وسيهيىء له مكاناً آخر غير مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم.

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه، لكن هذا الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُحْفِظ [2] وتملأ القلب بالألم والتعب.

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة.

والقرية التى أرسل إليها يونس عليه السلام هى قرية "نينوى"، وهى التى جاء ذكرها فى أثناء حوار بين النبى ﷺ والغلام النصرانى "عداس" الذى قابله ﷺ فى طريق عودته من الطائف.

---

(١) هو: أحمد بن الحسين المتنبى، شاعر حكيم، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ، ونشأ بالشام، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. توفى مقتولاً بالنعمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١ عاماً (الأعلام للزركلى ١/ ١١٥).

(٢) تحفظ: تغضب. والحفيظة: الغضب. ويقال: إن الحفائظ تذهب الأحقاد: أى: إذا رأيت حميمك يُظلم حميت له، وإن كان عليه فى قلبك حقد. [اللسان مادة حفظ].

وكان النبى ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصرة بعد أن آذاه قومه فى مكة فلم يجد النصير[1]، وجلس النبى ﷺ قريباً من حائط بستان.

فلما رآه صاحبا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقى من السفهاء ؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عَدَّاس ، فقالا له: خُذْ قطْفاً من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجَل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عَدَّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له: كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده ، قال: باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : «ومنْ أهل أىِّ البلاد أنت يا عدَّاس ، وما دينك؟» . قال: نصرانى ، وأنا رجَل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى » ؛ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متَّى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى» ، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقَبِّل رأسه ويديه وقدميه.

ولما سأل صاحبا البستان عدَّاساً عن صنيعه هذا. قال لهما: لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى[2].

(١) لما يئس رسول الله ﷺ من قومه بمكة الذين آذوه وآذوا المسلمين لجأ إلى «الطائف» يطلب نصرة «ثقيف» وكلمهم وعرض عليهم الإسلام ، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة . ورجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه . وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» . [السيرة النبوية لابن هشام : ٢/ ٤١٩ ، ٤٢٠] . بتصرف.

(٢) انظر : تفصيل هذه القصة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤١٩ - ٤٢١).

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم [1] ؛ فَهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم: عليكم بإرضاء يونس ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فآمنوا به ليكشف عنكم الغُمَّة.

وهُرع الناس إلى الإيمان بالحى الذى لا يموت ، الحيُّ حين لا حيَّ ، والقيوم والمُحيى والمميت.

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد اختلسه من جار له [2].

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه:

﴿.. كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [3] وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج: «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان» واختاره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢).

(٢) نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) من قول ابن مسعود.

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى ، أم كشف عنهم العذاب فى الدنيا فقط ؟ على قولين:

* الأول: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة.

* والثانى: كشف العذاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان منقذ من العذاب الأخروى ، وهذا هو الظاهر ، و الله أعلم. [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٣٣)].

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الغرق بركابها ؛ فألقوا الأمتعة فى البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر مَن تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام.

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلقاً ، لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين.

كذلك كان الأمر مع السفينة التى ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (1) (١٤١) ﴾ [الصافات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه (2) الحوت وابتلعه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام فى بطن الحوت :

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

---

(١) ساهم : قارع ، أى : اشترك فى الاقتراع . المدحضين : المغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه . [ابن كثير ٤/ ٢٠ - بتصرف].

(٢) التقمه : ابتلعه فى سرعة . قال سبحانه : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات] ، والمليم : هو مَنْ أتى ذنباً يُلام عليه.

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٩٨)﴾ [يونس]

وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجسَّداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناس فى هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزى فى الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخْزَى وأشَدُّ .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ ..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

أى : أنهم نَجَـوْا من الهـلاك بالعـذاب إلى أن انتـهت آجـالهم بالموت الطبيعى .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ[1] حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبى مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنزِل الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

---

(١) تُكره الناس : تلزمهم وتلجئهم . أى : ليس ذلك عليك يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بل الله تعالى يُضل من يشاء ويهدى من يشاء . كما قال تعالى فى ذلك : ﴿ ولو شاء ربُّك لجعل الناس أُمَّةً واحدةً ولا يزالون مُختلفين (١١٨) إلا من رَحِم ربُّك ولذلك خلقهم وتمت كلمةُ ربك لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّة والناس أجمعين (١١٩) ﴾ [هود] . وقال تعالى : ﴿ ليس عليك هُداهم ولكنَّ الله يهدى من يشاءُ .. (٢٧٢) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكنَّ الله يهدى من يشاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء ، المضل لمن يشاء ؛ لعلمه وحكمته وعدله - سبحانه . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٣٣] بتصرف .

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عَزَّ وجل قديم أزليٌّ بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى في ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذى أوجد كل شيء من عدم .

ولذلك يُسمّون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها .

فحين تقول : حيٌّ ، ومُحْيِي ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف بـ «مُحْيٍ» بعد أن وجد مَنْ يحييه ، لا ، إنه مُحيٍ ، وبهذه الصفة أحيا .

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه : قد نرى المصوِّر أو الرسام الذى صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التى مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة .

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَق الخَلْق .

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شيء يجدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينتفع من خلقه بل هو الذى ينفعهم .

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن[1]

(١) وذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات] .

وأما بقية الكون فمُسبِّح [1] مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكلٍّ نظام لا يحيد عنه .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُدخل الثقلين - الإنس والجن - فى نظام التسخير ما عزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبية .

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبية إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار .

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما فى الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسبِّح له .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾
[الإسراء]

وهذا ليس تسبيح [2] دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

فإن فقَّهك الله تعالى فى لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]. ويقول تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحشر].

(٢) تسبيح الدلالة والرمز نلحظه يقيناً فى حركة الجماد وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ؛ فكل حركة لها محرك ، وفى الحركة تسبيح ، وفوق ذلك نجد للأرض والسماء بكاء فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾[الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والعاطفة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسُّها قلب .

عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير [1] ، وسمع النملة تقول:

﴿ ..يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

والهدهد قال لسليمان عليه السلام ما رآه عن بلقيس ملكة سبأ:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

إذن: فكل ما في الكون مُسبِّح لله تعالى، يسير على منهجه سبحانه ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان؛ لأن كلاً منهما فيه عقلٌ، وله مَيْزة الاختيار بين البدائل.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن خلق للإنسان الاختيار حتى يذهب المؤمن إليه اختياراً، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجبر الإنسان على الإيمان لَفعلَ.

أقول ذلك حتى لا يقولن أحد: ولماذا كل هذه المسائل من خَلْق وإرسال رُسل، وتكذيب أناس، ثم إهلاك المكذِّبين؟

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

---

(١) قد ذكر الحق سبحانه يقول عن سليمان عليه السلام: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل].

إذن : فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخَّر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [1] نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وكان رسول الله ﷺ مُحبّاً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فينبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلّف نفسه شَطَطاً [2].

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقَّ الاختيار وسخَّر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصى أخرى ، وهذه هي مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيِّرة إنْ وجد من يعارض فيها فهذا ما شاءه الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك.

وإنْ غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له : إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتَخلَّقوا بأخلاق الله ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) باخع : أي : مهلك نفسك ، أي : مما تحرص وتحزن عليهم لعدم إيمانهم . وهذه تسلية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار . كما قال تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .. (٨) ﴾ [فاطر] . وكقوله سبحانه : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم .. (٦) ﴾ [الكهف] .

قال مجاهد وعكرمة وآخرون : باخع نفسك : أي : قاتل نفسك . وقد قال الشاعر :

ألا أيهذا الباخعُ الحزْنُ نفسَه ... لشيء نحتّه عن يديه المقادِرُ

[ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٣١)] بتصرف .

(٢) الشطط : الجور ومجاوزة القَدْر في كل شيء ، والمقصود : لا تظلم نفسك ، ولا تتجاوز الحد في الحزن عليهم . ومنه قوله تعالى عن الخصمين اللذين طلبا حكم داود بينهما ، فقالا له : ﴿ .. فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط (٢٢) ﴾ [ص] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ (١) عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

هكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛ لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر في سماء ذات أبراج (٢) ، وأرض ذات فجَاج (٣) ، وبحار تَزْخر (٤) ، ورياح تَصْفِر ، كل ذلك يدل على وجود الخَالق سبحانه .

لكن أَتَرَكَ الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

---

(١) الرجس : الخبال والضلال . [ابن كثير ٢/ ٤٣٣] . قال الزجاج : الرجس في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسمَّاها رجساً . وللرجس معان أخرى ، فهو العذاب كالرِّجز ، وهو المأثم وهو الشك في مثل قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهي منازل الأفلاك في السماء أو هي الكواكب . وقيل : هي النجوم . [انظر لسان العرب : مادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] . وقال تعالى في صيغة المفرد : ﴿ .. وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] .

(٤) بحار تزخر : أي : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر القوم : جاشوا لنفير أو حرب . [لسان العرب ، مادة : زخر] وهذه الجمل من خطبة خطبها قُس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية ، كان أولها : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت » انظر : البيان والتبيين - للجاحظ (١/ ٣٠٨) .